علاقة الطب بالأدب

عبد الكريم الحبيب

أولاً: مقدّمة:

للطب علاقة وثيقة بالأدب، شعرهِ ونثرهِ، لأن وضعية الطب من حيث الوجود إنسانية، علمية، يبث الحياةَ روحَها، ويمنح الإنسان سعادته، وكذلك الأدب، فوضعيته إنسانية، لأنه يترجم روحَ الحياة نسمة سعادة تستقر في فؤاد الإنسان، وتضمن استمرارية ذِكْرهِ، وتمنحه سعادةً روحية، تجعله يحلّق في آفاق الخلود، ومن هنا يلتقي الطب بالأدب فيتعلقان بأهداب الإنسان وجوداً جسدياً وروحياً، ويفيضان سعادةً أبدية، فكما ترتسم على وجه السقيم علائم الشكر والعرفان عند شفائه، فيشعر الطبيب براحة الضمير ترتسم على وجه المتلقي علائم الرضا، عندما يقرأ قصيدة أو فكرةً تجسّد مشاعره، وتفيض بعذوبة أحاسيسه، وقد سار الطب والأدب معاً، وربّما دَخَلا فؤاداً واحداً، فالأديب فنّانٌ لأنه يعطي الفكرة صورتها الحسيّة عندما تتجلّى له معنوياً فيحقّق الجمال، والطبيب فنّانٌ مبدعٌ عندما يعرف كيف يحفر الضرس ويجعل التاج مريحاً في الفم، أو عندما يضع المبضع فيتفنن بأبعاد جُرْحٍ ليستأصل الداء، أو عندما تمرُّ يده لترسم أبعاد الألم على بطن المريض، فيكون الشفاء فكرةً علمية في ذهنه، تصبح حسيّة على وصْفةٍ وتغدو صحة بالدواءِ.

** يحدثنا التاريخ عن أطباء شعراء وأدباء، وأطباء فلاسفة لأن ذلك يصب في خدمة الإنسان.*

ومن هنا كنا نرى الطبيبَ شاعراً وأديباً، والشاعرَ طبيباً وفيلسوفاً، كما يحدثنا التاريخ، لأن ذلك يصب في خدمة الإنسان، ولذلك فالحديث عن علاقة الطب بالأدب، واسعٌ ومتشعّبٌ، وبحاجة إلى مجلّدات غير أني سأبحث في علاقة الطب بالشعر قديماً وحديثاً، لأن الشعر ديوانُ العرب، ووترُ أحاسيسهم ومشاعرهم.

أ ـ معنى الطب، لغةً واصطلاحاً:

أجمعتْ معاجم اللغة على معنى الطب بأنه العِلْمُ، والحَذْق أي المهارة(١) وربما تعدّدت هذه المعاني، فأخذت وضعية هذه المهنة ووصفَها، فقد قيل، (رجلٌ طبٌّ) إذا كان عالماً حاذقاً، والطِّبُّ: السحر أيضاً(٢) يُقال: (رجلٌ مطبوبٌ أي مسحورٌ)، وكأن الطبيب عندما يشفي مريضه يكون ساحراً بعلمه ومهارته، وهذا عائدٌ إلى تاريخية اجتماعية عند بعض الشعوب، ومنها العرب، أن المرض يسبّبه شياطينٌ وجنٌّ والطبيب يطرد ذلك من الجسد. كما يفعل الساحر..

وكذلك ورد: "أن الطبيب، هو الماهر الحاذق بالأمور، وكل حاذق بعلمِهِ طبيبٌ عند العرب، ولذلك سمي معالج المرضى العالم بالطب طبيباً، وجمعه أطبّةٌ، وأطباءُ"(٣).. وهو النِّطاسيُّ، لأنه الحاذق بالطبّ والعالم بالأمور(٤)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولجمع الطبيب أنواعَ المعارف سُمّي حكيماً أيضاً، لأنه العالم، صاحب الحكمة، والحكمة: هي إصابة الحق بالعلم والعقل، ومعرفة الموجودات، وفعل الخيرات، لأنها العلم بحقائق الأشياء، على ماهي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية(٥)، وكأنَّ هذا التعريف يحدّد ماهية الطبيب من حيث المهارة وشرفُ المهنةِ وإنسانيتُها، كما هو في الواقع العملي للنهوض بالإنسان وكرامته، وعقله، لأن العقل السليم في الجسم السليم.

ب ـ أهمية علم الطب:

للطب سِمةٌ إنسانية، لأنه يؤدي دوراً كبيراً في حياة الفرد والأمة. فهو يعالج المرض، وينشر الوعي الصحي، ويدعو إلى الوقاية، ففي كل لحظة يكون إنسان ما، بحاجةٍ إلى الطبيب، مما يدعو إلى احترام صاحب هذه المهنة، لأنه يزرع فينا زنبق الصحة، وورد الأمل، وياسمين الشفاء والعافية، وربّما تسلّل إلى ذهن بعض الضعفاء شيءٌ من معاداة الطب، كما فعل أبو الفرج بن الحسين بن هندو قديماً، حيث ألف كتاباً يُبطل فيه علم الطب، فعرض له صُداع، فبعث إلى الطبيب أبي الخير، فقال الطبيب لرسوله، قل له: ضع تصنيفك في إبطال علم الطب تحت وسادتك، فإنه لا حاجة لك إلى الطبيب والطب فما عالجه أحدٌ من الأطباء حتى اعترف ببطلان كلامه ومزّق تصنيفه وتاب، ثم عولج وشُفي"(٦).

لذلك فالطب هو الطبيب، واحترامه هو احترام حامله والثقة به، فإذا عُدمتْ هذه الثقة عدم الشفاء.

ولاشك أن مهنة الطب، وعلمَهُ، كانَ وقفاً على متعلّميه قديماً، وربما احتكرته أسرٌ بأعيانها، مثل: (آل زَهْر) في الأندلس(٧)، و(آل بختشوع) في المشرق، و(آل نوبخت) أيضاً(٨)، حيث كان الأب يعلّم أبناءه فقط، ولسنا بصدد تاريخية هذا التعليم، غير أن الذي يهمنا هو أن الطب كان ضرورياً في كل زمان ومكان وربّما كان الدافع لتعلّمه قديماً هو مَرَض الشخص نفسه، حيث يسعى إلى معرفة دائه، فيداوي نفسه ويبرأ، فتطير شهرته، ويتمكّن من هذا العلم، كما عبّر عن ذلك الشاعر سعد بن محمد بقوله:(٩)

يا طالب الطبّ من داءٍ أصيب به

إن الطبيب الذي أبلاك بالدّاءِ

هو الطبيب الذي يجري لعافيةٍ

لا من يُذيب لك الترياق بالماءِ

ج ـ شرف المهنة:

لقد أثبت الطب إنسانية حامليه من خلال تفانيهم بخدمة المجتمع، ولقد رصد الشعر قديماً وحديثاً هذه الظاهرة، وخير مثال على ذلك ما روي عن (ابن سينا) الذي كان يدبّر كل يوم مؤامرةً على الأمير (نصربن نوح الساماني)، وعندما ندَبهُ إلى علاجه من داء (القولنج) وقد أعجز الأطباء، عالجه بأمانة وإخلاص، حتى عوفي، وعندما أراد أن يعطيه ثمن علاجه، لم يطلب منه (ابن سينا) سوى أن يُدخله إلى مكتبته فقط، لينظر في الكتب، وعندما داعب أحمد شوقي صديقه الطبيب محجوب بأنه يكنز الدراهم من جرّاء مهنته فيقول له: (١٠)

قل لابن سينا لا طبيب اليوم إلاّ الدرهمُ

هو قبل بقراطٍ وقبلكَ للجراحةِ مرهمُ

ينبري الطبيب الشاعر وجيه البارودي،

**** رجل طب إذا كان عالماً حاذقاً. والطب هو السحر أيضاً فالرجل المطبوب هو المسحور.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليثبت عكس تهمة شوقي فيحدثنا عن شرفِ مهنتهِ وإخلاصهِ لها، حتى وإن عاشَ فقيراً، حيث يقول: (١١)

زهدتُ في العيش حتى هجرتُ أهلي وصحبي

وعشتُ، كسرةُ الخبز من اللذائذِ حسبي

قهرتُ نفسي بالدَّيْنِ وانقطعت لطبي

بل إن هذا الطبيب الشاعر عندما تقسو عليه الحياة، ويتنكّر له أهل بلده، فإنه يسمو بخلقه، ويتمسّك بشرف مهنته، وكأنه يتمثّل خلقَ كل طبيب يريد أن يعالج الداء في نفوس القوم وأجسادهم حيث يقول: (١٢)

قالوا هجوتَ حماةَ قلتُ معترفاً

أخْبثْ بها في بلادِ الله من بلدِ

أنت الطبيب النطاسيُّ الذي انكشفتْ

له الخفايا، وحُلّتْ أعقدُ العقدِ

فانزلْ لمعترِكِ الأوباش مجتهداً

لطالما افتقر العاصي لمجتهدِ

جاهِدْ بطبْكَ في روحٍ وفي جَسَدٍ

وقلْ لخصمكِ: شمَّ الجمرَ أو فحِدِ

كلاّ.. طبيبٌ أنا، والطب يمنعني

من أن تمدَّ بسوءٍ للمريض يَدِي

بل إننا نرى البارودي ممعناً في المثالية الإنسانية التي ترفق بالآخرين لأنها تتحلّى بطباع الطبيب ذي العلم والعقل، وهي الحكمة الوضعية التي يلتزم بها، فيتسامح مع الذي يؤذيه مؤثراً علاجه النفسي بسعة صدره، وكأنه يتمثّل قول حكيم الهند: "ينبغي أن يكونَ صدرُ الحكيم كشجرة الصندل، تعطّر الفأس التي تضربها".

لذلك يقول البارودي من أبياته السابقة:

يا قلب إن جاءَ باغٍ في وقاحتِهِ

فاسمعْ شتائمه، واطربْ وقلْ أعِدِ

فالناس حولك مرضى في جِبلَّتِهم

والبرءُ رهنُ التأنّي فانتظرْ لِغَدِ

لذلك فإنه رغم أذاهم لهُ يُظهر جانب اللّين والعطف على أبناء مجتمعه لأنهم عُفاةٌ، فقراءٌ، فإذا ما حَدّثته نفسه مرةً بفقرهِ هو، وأرادت أن تغريَه بالثراء يعود إلى ضميره الحي الذي هو في كل طبيب ويوازن بين حب الناس له، ووفائه لهم، وبين الجشع وحب المال، فيرجح لديه حبّ الناس، لأنه يرضي نزعة الطبيب الأخلاقية الإنسانية فيقول: (١٣)

**** للطب سمة إنسانية لأنه يؤدي دوراً كبيراً في حياة الفرد والأمة.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واحترتُ في أمري أأحيا معسراً

بين العفاةِ أم انبري لثراءِ

وإذا رجعت إلى الضمير وجدتني

أبكي على صحبي أحرَّ بكاءِ

أأذيقهم جشعي وأخسر حبَّهم

أين الوفاء لمعشر البؤساءِ

ثانياً: موقف الشعراء من المرض:

تناول الشعراء، قدامى ومحدثون، وصفَ المرض سواءٌ شكوى منه، أو في معرض التشهير بحامله والنفور منه، أو لجذب الناس واكتساب عطفهم على المريض، ولم يقفوا عند الأمراض العضوية الظاهرة، كالعمى والبرص والخُنان، وإنما توغلوا في أعماق المرض فوصفوا بعض الأمراض الباطنية، ثم وصفوا الأمراض النفسية أيضاً.... كما سنرى - وخاصة الهيام وجنون العشق. وغير ذلك.

أ ـ الأمراض العضوية:

يفلسف الشاعر الطبيب وجيه البارودي الجُرْح فلسفة لطيفة ويعطيه بُعْداً نفسياً معيناً إذ يقول: (١٤)

إذا ما الجُرْحُ لم يُنكأ تمشَّى

إلى بُرْءٍ وإن تَنْكَأهُ ظلاّ

وربما تزوّج رجلٌ أبخر الفم، شاعرةً، فعندما عانقته نَفَرَتْ من رائحة فمه وطلّقته، بعد أن خاطبته أمام القاضي بهذه الأبيات:(١٥)

ياحِبُّ، والرحمن إن فاكا

أهلكني، فولّني قفاكا

إذا غدوتَ فاتخذْ مسواكا

من عرفطٍ إنْ لم تجدْ أراكا

كما تعرّض الشعراء إلى داء الخُنان الذي يصيب الأنف والعين والحَلْق في الإنسان والحيوان، وقد يؤدي إلى الموت، ونجده في شعر النابغة الذبياني إذ يقول مفتخراً: (١٦)

فمنْ يحرصْ على كبري فإني

من الشبّان أيام الخُنان

كما نجده عند جرير، الذي كان يطبّب في زمانه، فيذكر طبه له بالكي فيقول: (١٧)

وأشفي من تخلُّج كلّ داءٍ

وأكوي الناظرَين من الخُنان

وربّما بلغتْ دقةُ الشعراء ذروةً فنية بتفصيلٍ دقيقٍ، وتوَريةٍ لطيفةٍ في وصف قَلْع ضَرْس، وذلك لغلام الشاعر صفي الدين الحِلّي واسمه غزالٌ، فجعل التورية باسمه على الظبي، وعلى أداة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الطبيب الذي يقلع بها وسمَّاها كلبتين، توريةً بكلاب الصيد التي تستخدم لصيد الغزلان فيقول: (١٨)

لحى الله الطبيب لقد تعدّى

وجاء لقطع ضرسكَ بالمحال

أعاقَ الظبيَ في كلتا يديهِ

وسلّط كلبتين على غزال

ولا بأس أن يفخرَ الشاعر ببَرَصِهِ، لأن خصاله الكريمة تعوّضه عن علّته وكانت العرب تفخر بالأبرص، مراعاة لشعوره، حيث يقول الشاعر سهل: (١٩)

أيشتمني زيدٌ بأن كنت أبرصاً

وكلّ كريم لا أبالك أبرصُ

غير أن شاعراً مرّ برجلٍ يضرب غلامه، وكان الغلام جميلاً فدعا عليه أن يصيبه الفالج الذي أصاب (القاضي أحمد بن أبي داؤد) قاضي القضاة زمن المعتصم، وكان فالجه قبيحاً لذا ضُربَ المثل به إذ يقول: (٢٠)

أتضربُ مثلَهُ بالسوطِ عشراً

ضُربْتَ بفالج ابن أبي داوْدِ

وقد أبدع المتنبي في وصفه الحمى، لأنه ينقل شعوره وهو فيها، يعيش حرارتها وعذابها، فيدق وصفه لها وأثرُها فيه، فهي لا تختارُ زيارتها له إلا ليلاً، وعندما أكرمها واستضافها حلّت في عظامه، وأصبحت توسع جلده بأنواع الآلام، فتزوره وهو يترقب زيارتها، ويعتبر صدقها في وعدها شراً عظيماً، وربما تعرّض إلى قول الطبيب عندما أتاه معالجاً فيقول: (٢١)

وزائرتي كأنَّ بها حياءً

فليس تزور إلاّ في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا

فعافتها وباتتْ في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها

فتوسعه بأنواع السقام

ويصدق وعدها والصدق شرٌّ

ألقاك بالكُرَبِ العظام

ب أكلت شيئاً

ئكَ في شرابكِ والطعام

ومافي طبِّهِ أني جوادٌ

أضرَّ بجسمِهِ طولُ الجَمام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَوَرَدَ الجُذام غير مرّة في شعر الشعراء، وهو مرض وخيم ينتهي إلى تقطُّع أطراف البدن، وسقوطِها عن تقرُّح، ويفسد مزاج الأعضاء وهيئتها(٢٢) يقول الشاعر بذلك لأمرٍ عَرَضَ له: (٢٣)

وهل كنتَ إلا مثلَ قاطع كفّه

بكفٍّ له أخرى فأصبح أجذما

ويمتد وصف المرض عند الشعراء إلى العيون، حيث يرد في أشعارهم ما يطرأ على العينين من مرض مثل (الرَّمد) حيث يقول ربيعة برسالة أرسلها إلى امرأةٍ يحبّها: (٢٣) ويجعل شفاءه نظرةً إليها.

عينا ربيعة رمداوان فاحتسبي

بنظرةٍ منكِ تشفيهِ من الرَّمدِ

إن تكتحلْ بكِ عيناه فلا رمدٌ

على ربيعة يُخشى آخر الأمدِ

وقد يرثي الشاعر عينيه واصفاً داء العمى فتشيع الحسرةُ في ألفاظه لأنه فقد مرآة الحياة المبصرة، وفي ذلك يقول أبو علي البصير: (٢٤)

عزاؤكِ أيها العين السكوبُ

وحَقّكِ إنها نُوَبٌ تنوبُ

وكنتِ كريمتي وسراجَ وجهي

وكانت لي بكِ الدنيا تطيبُ

على الدنيا السلامُ فما لشيخ

ضرير العين في الدنيا نصيبُ

غير أن بشاراً وفيه توثّبُ الشباب ودفقةُ الحياةِ يصف عَمَاهُ على أنه سبب ذكائه، وهذه حاجةٌ نفسيةٌ تعويضية، نلمسها لدى أكثر العميان إذ يقول: (٢٥)

عُميت جنيناً والذكاء من العمى

فجئت غريب الظنِّ للعلم موئلا

وربما تسلّلت أحاسيس الشعراء المحدثين إلى داخل الجسد لترصد بعض العِلل التي تحلّ بالإنسان، فنسمع الشاعر (بدر شاكر السياب) يصف ما حلَّ برئَتِهِ، وكأنه يصف بداية السلّ الرئوي، فيقول في قصيدته رئة تتمزق(٢٦)

الداءُ يُثلجُ راحتيَّ ويطفِئ الغدَ في خيالي

ويشل أنفاسي ويطلقها كأنفاس الدُّبال

فإذا توقفنا عند داء السلّ نجد دقة وصفهِ لدى الأخطل الصغير عندما يصف حال المسلول الذي انغمس باللذائذ الرخيصة عند بائعه هوى، فافترسه الداء وكانت نهايتهِ محتومة حيث يقول:(٢٧)

**** أنت الطبيب النطاسيُّ الذي انكشفت له الخفايا وحلّت أعقد العقد.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا الفتى بالأمس صارَ إلى

رجلٍ هزيل الجسم منجردِ

عيناهُ عالقتان في نفقٍ

كسراج كوخ نصفِ متقدِ

تهتز أنمُلُهُ فتحسبها

ورق الخريف أصيب بالبَرَدِ

يمشي بعلّتهِ على مهلٍ

فكأنه يمشي على قصدِ

ويمج أحياناً دماً فعلى

منديلهِ قطعٌ من الكبدِ

قِطعٌ تآبينٌ مفجِّعةٌ

مكتوبةٌ بدمٍ بغير يدِ

قِطعٌ تقول له تموت غداً

وإذا ترقّ تقول بعد غدِ

ولذلك استعاذ الشاعر وأعاذ من داء السلّ وقرن به ثلاثة أشياء أخرى في بيتٍ لطيف، وهي في نظرهِ تودي بالإنسان لأن بينها علاقة وطيدة، فقال: (٢٨)

أعاذك الله من أشياءَ أربعةٍ

السلِّ والعشق والإفلاس والجربِ

وربما كان الجامع لهذه الأشياء الأربعة هو السهر والتبريح والقلق.

ب ـ الأمراض النفسية:

لم يقتصر الشعراء على ذكر الأمراض العضوية، بل تعدوا إلى ذكر الأمراض النفسية التي تعتري الإنسان، وربما ذكروا بعضاً من أسبابها، ونقروا من المصابين منها، وقد يخرج بعضهم عن المسببات العلمية، إلى ما يدور على ألسنة العامّة من ذلك، فهذا الشيخ (علم الدين السخاوي) يحذّر من داء النسيان ويأخذ قول الطبيب (ابن شهاب الزهري) عمدةً له في شعرهِ حيث يقول: إن التفاح الحامض وسؤر الفأر يورثان النسيان"، ويضيف إلى ذلك التبوّل في الماء الراكد ووجود القمل في الرأس ورؤية المصلوب أيضاً، يقول السخاوي: (٢٩)

توقَّ خصالاً خوفَ نسيان ما مضى

قراءةَ ألواح القبور تديمها

** لحى الله الطبيب لقد تعدى وجاء لقطع ضرسك بالمحال. أعاق الطبي في كلتا يديه وسلط كلبتين على غزال.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأكلكَ للتفاح ما كان حامضاً

وكزبرةٍ خضراءَ فيها سمومُها

ومن ذاك بولُ المرءِ في الماء راكداً

كذلك نبذ القمل لست تقيمها

ولا تنظر المصلوبَ في حال صلبهِ

وأكلكَ سؤرَ الفأر وهو تميمها

ولم يقتصر السخاوي على ذلك بل إنه يعدُّ المشي بين قافلة الجمال وتسمى(قطاراً) وكذلك الاحتجام بالقفا مما يورث الهمّ والكآبة فيقول: (٣٠)

كذا المشيُ مابين القطار وحجُمك

القفا ومنها الهم وهو عظيمها

وكانت العرب تتشاءم من صاحب الغمّ، لذلك ورد في بعض الشعر وصيةٌ لشاعر ينصح زوجه بعد مماته أن لا تتزوّج من صاحب غمّ لأنها لن تجني إلا الهمّ فيقول: (٣١)

فلا تنكِحي إن فرّق الله بيننا

أغمَّ القفا والوجه ليس بأنزعا

لأنه كما ورد عند "ابن سينا": "أن الغم والهمّ والنسيان تورث الغباء، وهو علةٌ نفسية تقود إلى الفصام أحياناً، وتطرّق الشعراء إلى ذم الزمان الذي يسود فيه الأغبياء والأوغاد حيث يقول أحدهم: (٣٢)

أذمُّ إلى هذا الزمان أهيلَهُ

فأعلمهم فَدْمٌ وأحزمهم وَغْدُ

وربما كان الجنون كعلّة نفسية وقف عندها كثير من الشعراء وفلسفوها فلسفةً جميلةً، فنزار قباني يأخذه بمعناه الإيجابي، لأنه يعتبرُ ذروةَ العقل الجنون، فيقول مخاطباً قاسيون كرمزٍ عربي(٣٣)

قادمٌ من مدائن الريح وحدي

فاحتضنّي كالطفل يا قاسيونُ

احتضّني ولا تناقشُ جنوني

ذروةُ العقل يا حبيبي الجنونُ

بل إننا نجد (أبا بكر الشبلي) وهو من كبار الصوفية يعتبر أن أيسرّ الحبِّ هو الذي يحلّ بالمجانين، لأن نفوسهم قد غدت معلقةً بمن يحبّون فيقول: (٣٤)

وقالوا جُنِنْتَ على ليلى فقلت لهم

الحبُّ أيسره ما بالمجانين

والحبُّ إذا أخذ بمجامع القلوب وتملّك من

** إذا ما الجرح لم ينكأ تمشى إلى برء وإن تنكأه ظلَّ.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الروح، يستولي على الحواس فتعلو المحبّ صفرةً، ورعشةٌ، ويصبح القلب كجناح طائر تعلّق بشباك الصيادِ ويتحقق الهيام فالهوى حيث يصادر صاحبه فيهويه على أعتاب الحبيب وقد يصيب السقمُ العاشقَ، ويقوده إلى تمثّل معاني المحبوب، فيرتفع عن الحّسّيات إلى المعنويات، لأنه رباط روحي، وقد يؤدي إلى موت صاحب القلب الرقيق، "فقد سأل رجلٌ شاباً من قبيلة عذرة، أحقاً كما يقولون: إن قلوبكم رقيقة، فأجابه، لقد غادرت القبيلة، وفيها مائةُ شاب يموتون، وما داؤهم إلاّ العشق"(٣٥).. وقد عبر مجنون ليلى عن ذلك بقوله: (٣٦)

سقيمٌ لا يصاب له دواءٌ

أصاب الحبُّ مقلتَهُ فباحا

فكاد يُذيقه جُرَعَ المنايا

ولو اسقاهُ ذلك لاستراحا

وهل ينفع الطب محموماً من العشق، في الحقيقة، لا...!، وإن تعدّدت أقوال الأطباء في تشخيص مَرَض العشق، فإنهم لا يجدون له شفاءً فيا عجز الطب أمام العاشقين وبلواهم، يقول المجنون أيضاً: (٣٧)

وجاؤوا إليه بالتعاويذِ والرّقى

وصبّوا عليه الماءَ من ألم النكْسِ

وقالوا به من أعين الجِنِّ نظرةٌ

ولو عقلوا قالوا به نظرةُ الإنس

وربما تفلسف شعراء العربية في تصوير أنفسهم مرضى من العشق، وقد أسعفهم خيالُهم في التقاط صورٍ فنيةٍ لطيفةٍ ودقيقةٍ، دقة سَرَيان الحب في أعصابهم، وقد تفردوا في وصف معاناتهم بمبالغاتٍ مثيرةٍ للقارئ فهذا الشاعر قد شَفَّه العشق وأنحله حتى لبسَ خاتمه في خصرهِ، بل أصبح خيالاً لطيفاً حيث يقول: (٣٨)

قد كان لي فيما مضى خاتمٌ

فدقَّ جسمي فتَمَنْطقْتُ بهِ

وزاد بي السقمُ فلو زُجَّ في

مقلةِ النائم لم ينتبهْ

بل إن عاشقاً آخر رقَّ جسمه متجاوزاً حدّ السقم، فأغلقوا نوافذ البيت عليه حتى لا يطير مع النسيم كما يقولون: (٣٩)

ولما إنْ رأى أهلي سقامي

تجاوز حدُّهُ حدَّ السقيم

سددنْ منافسَ النسماتِ عني

مخافة أن أطيرَ مع النسيم

وفي المعنى نفسه يقول الشاعر(٤٠):

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رأيتُ العاشقين لهم جسومٌ

براها الشوقُ لو نُفِخوا لطاروا

غير أن المجنون كان أكثر رقة من السابقين، لِتَمكّن السقام منه حتى إذا ما كلّمه زائر له يسأله عن سبب مرضه يطير من أنفاسهِ فيقول:(٤١)

وإذا عائدٌ دنا لكلامي

لعبتْ بي أنفاسه في الفراش

ولم يقتصر وصف الشعراء على أحوال المريض وما حلَّ به بل إنهم أكدوا على عيادة المريض، لأنه يأنس بالزائرين، ويُخَفّف عنه ألمُ المرض وقد يكون الشفاءُ نتيجةً للزيارة ألم يقل الشاعر:(٤٢)

مرض الحبيب فعدْتُهُ

فمرضتُ من خوفي عليهِ

وأتى الحبيبُ يعودني

فبرئتُ من نظري إليهِ

وحدَّد الشعراء بدقةٍ أدبَ عيادةِ المريض مراعاةً لصحتهِ ووضعه النفسي فجعلوها يوماً بعد يومين، وأن تكون قصيرةً، ولا يُثقَلُ على المريض بالكلام، وفي هذا الأدب يقول الشاعر: (٤٣)

حقَّ العيادةُ يومٌ بعد يومين

وجلسة مثل خَلْس اللّحظِ بالعين

لا تُبرمنّ عليلاً في مساءلةٍ

يكفيك من ذاك تسآلٌ بحرفين

لأن المريض يتمنى أن يزوره المخلصون له، وقد يتجاوز التمني إلى عتاب مَنْ قصّر عن زيارته، ولذلك أطلقها معاتبة لطيفة الشاعرُ عبد الله بن مصعب لبعض القوم بقولهِ: (٤٤)

مالي مرضتُ فلم يعدني عائدٌ

منكم ويمرض كلبكم فأعودُ

ثالثاً: موقف الشعراء من العلاج والتداوي

طالما أن كثيراً من الشعراء مارسوا مهنة الطب، فمن البديهي أن يظهر علاج بعض الأمراض في أشعارهم، وهذا العلاج أيضاً للعلل العضوية والنفسية، وسيكون لنا وقفة معينة عند طريقتهم العلاجية من داء الحب.

أ ـ علاج الأمراض العضوية:

لقد أكّد الشعراء والأطباء معاً أن المعدة بيت الداء، عملاً بقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم): "ما ملأ أحدكم وعاءً شراً من بطنهِ"(٤٥)..

**** وزائرتي كأن بها حياءً فليس تزور إلا في الظلام، بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

* عينا ربيعة رمداوان فاحتسبي بنظرة منك تشفيه من الرمد.

ولذلك حذّر الشعراء من عواقب الشَّرَهِ إلى الطعام كقول الشاعر الطبيب: (٤٦)

شَرَهُ النفوس على الجسوم بليّة

فتعوّذوا من كلِّ نفسٍ تشرَهُ

وربّما أكدّ بعضهم أن عدم التقيّد بآداب المائدة يدفع إلى المرض والموت كقول الشاعر: (٤٧)

فكم أكلةٍ أكلتْ نفس حرٍّ

وكم أكلةٍ جلبتْ كلَّ ضُرٍّ

فالصحة والسلامة هي الوقاية من الأمراض، وقد وردت أبياتٌ منسوبة إلى الإمام عليّ (كرم الله وجهه) تحدّد هذه الوقاية، وهي تبيّن أسباب بعض الأمراض، فإذا اتبعتْ تنقي الجسم من المرض.

تقول الأبيات: (٤٨)

توقّ مدى الأيام إدخال مطعمٍ

على مطعمٍ من قبل هضم المطاعم

وكلُّ طعامٍ يعجز السنُّ مضغهُ

فلا تقربنهُ فهو شرٌّ لطاعم

ووفّرْ على الجسم الدماءَ فإنّها

لقوة جسم المرءِ خير الدعائم

وإياكَ، إنْ تنكحْ طواعن سِنِّهم

فإنّ لها سمّاً كسمِّ الأراقم

وفي كلِّ أسبوع عليك بقيئةٍ

تكنْ آمناً من شرّ كلّ البلاغم

ولم يكتف الشعراء بوصف الوقاية من الأمراض العضوية، بل إنهم ذكروا كثيراً من العقاقير الطبية، وكلها من الأعشاب التي استدلوا عليها بالخبرة والتجربة، وبعضها ما زال مستخدماً حتى يومنا هذا، فمن ذلك مثلاً: "القِلْقِل" وهو حبّ الفلفل المعروف، فقد ورد أنه: "حارٌ رطبٌ، ويحرّك القِوى الجنسية ويثير المعدة، والإكثار منه مُتخمٌ".

وقد قال فيه الشاعر: (٤٩)

وقد أراني في الزمان الأول

أشتاقُ زوجي في خلوٍّ المنزل

فأدقُّ بالمِنحار حبّ الفلفل

والمِنحار، آلة لدقّ حب الفلفل وتنعيمه، وذكروا أيضاً "الأقحوان" وهو البابونج المعروف بمصر "بالكركاش"، وفي المغرب: "شجرة مريم"، وهومدرٌّ للبول، والطمث، ونافع للربو والقولنج، قال أبو الطيب حمدويه يذكره: (٥٠)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أيــا قمــراً تبسَّــم عــن أقــاح

ويــا غصــناً تثنــى فــي ريــاح

جبينـــك والمقلّـــد والثنايـــا

صـباحٌ فـي صـباحٍ فـي صـباح

وذكروا "الإبليم" وهو نوع من البقل، لها قرون كالباقلاء، يصنع منه بعض المراهم لطلاء الجسم فيعطيه ليناً ونعومة، ويشفي من تشقق الجلد، وقال فيه الشاعر: (٥١)

وحرّةٍ غير مثقالٍ لهوتُ بها

لـو كـان يخلـد ذو نعمـى لتنعـيم

كـأن فوق حشاياها محبِّسها

صـوايرَ المِسـك مبلـولاً بـإبليم

كما ذكروا أن دواءَ سمِّ الأفعى يكون بالرُّقى كقول النابغة: (٥٢)

فبـتُّ كـأني سـاورتني ضـئيلة

من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

تبادرها الراقونَ من شرِّ سمِّها

فتطلقــه يومــاً ويومــاً تراجــعُ

أو ربما كان بعُصارة ورق "المرّان" وهو شجر في المغربِ حار يابس إذا شربَ منه درهم بخمر نفع من نهشة الأفعى وفيه يقول الشاعر: (٥٢)

وخْزُ الأسنةِ والسؤال لناقصٍ

أمـران عنـد ذوي النهـى مـرّان

والـرأي أن يُختـارَ فيمـا دونـه

المــرّانُ وخْــزُ أســنّة المــرّان

وكان من الشائع قديماً أن المصاب بداء (الكَلَب) إذا شرب من دم إنسانٍ شريفٍ برئَ لساعتهِ، ولذلك قال الشاعر في مديحه: (٥٣)

أحلامكـم لسـقام الجهـل شـافية

كمـا دمـاؤكم تشـفي مـن الكَلَـبِ

أما دواء وجع الضرس والأسنان فهو لطيفٌ، وكان يتمُّ تسكينُ الوجع بطريقة معينة وهي:"أن يكتب على جدار، ج.ب.ر ـ ص لا ـ و ع م لا ـ وتأمر الموجوع أن يضع إصبعه على الضرس الضارب وتضع مسماراً على أول حرف من الحروف المتقدمة، وتدق عليه دقاً خفيفاً وأنت تقرأ:

"ولو شاء لجعله ساكناً"، وقد نظم ذلك الشاعر بقوله: (٥٤)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وللضرس فاكتب في الجدار مفرّقاً

بمـــا جَمْعُـــهُ جبّـــر صِـــلاً وعمَّـــلا

ومِرْهُ على الموجوع يجعل إصبعاً

وضع أنت مسماراً على الحرف أوّلا

ودقّ خفيفـاً ثـم سَـلْهُ تـرى بـهِ

سـكوناً، نعـم، إن قـال بلّغـه موصـلا

ودواء الجنـون عنـد العـرب سـمّوه "قلـة الميرون"، وهو دواء مركب من دهن البيلسان وغسيل أرجل البتاركة في ليلة الغطّاس، يجمعها البتـرك ويجعلهـا فـي الزجاجـات، فيبـرئ بـه المصروعَ والمبرسَمَ وصاحبَ الماليخوليا، ولذلك قال مدرك بن علي الشيباني الطبيب من قصيدة طويلة: (٥٥)

بحـقٍّ مـا فـي قلّـةِ الميـرون

مـــن نـــافع الأدواءِ للمجنـــون

ولم يكتفِ الشعراء بوصف العقاقير الطبية فقط، بل وصفوا أدوات الطبيب، وخاصة في العمليات الجراحية، مضيفين إليها بعضاً من رقتهم وتسليمهم لهذا العلم حيث يقول جورج صـيدح واصـفاً عمليـة جراحيـة أجريـت لابنتهِ: (٥٦)

رفقـاً بهـا يامبضـع الجـرّاح

شـرّحتَ قلـبَ الوالـدِ الملتـاح

ويحي دفعت إلى المشارط فِلذَةً

كنـت الضـنين بهـا علـى الأريـاح

آمنـت فـي علـم الطبيـب وأنَّ فـي

جُـرْحِ الجسـوم سـلامة الأرواح

غير أن السياب كان أكثر دقة، لأنه يصوّر ما جرى معه، فينقل لنا أحاسيسهِ، مصوّراً معاناته من أدوات الطبيب، حيث يقول من قصيدة بعنوان: "في المستشفى": (٥٧)

كذلك انكفأتُ أعضُّ الوسادْ
وأسلمتُ للمشرطِ القارس
قفايَ المدمّى بلا حارس
بغير اختياري طبيبي أرادْ
لقد قصَّ... مدَّ المجسَّ الطويلْ
لقد جرّه الآن.. أواه... عادْ
ولا شيء غير انتظارٍ ثقيلْ.

ب ـ علاج الحب:

والحب كما أسلفنا من أكبر الآفات والعلل التي تصيب القلوب، فيتغيّر نبضها ويختل تدفق الدم في شريان الحبيب، وماذا تحدّث عن توتره الشرياني، وعمل دماغه، وبمثل هذه الحال نرى عجباً للعلاج، حيث كانت التمائم والرقى والتعاويذ أوّل ما يفكر به الطبيب ، وأحياناً المحب، فهذا الشاعر يجعل من وردة المحبوب تميمة في

**** هـذا الفتـى بالأمس صار إلى رجل هزيل الجسم منجـرد. عينـاه عالقتـان فـي نفـق كسـراج كـوخ نصف متقد.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عضـــــدهِ لتخفيـــــف جـــــواه وكمـــــده، فيقول: (٥٨)

جعلـــتُ مـــن وردتهـــا

تميمـــــة فـــــي عضـــــدي

أشـــمُّها مـــــن حبهـــا

إذا علانـــــــي كمـــــــدي

أمـا الشـاعر (عـروة بـن حـزام) صـاحب (عفـراء)، فـإن عشـقه يجعـل الأطبـاء والعـرّافين يقفون عـاجزين أمـام دائـهِ، فيتركونـه لله عسـى أن يشفيَه، وقد صوّر ذلك بقوله: (٥٩)

جعلـتُ لعـرّاف اليمامـة حكمَـه

وعـرّاف نجـدٍ إن همـا شـفياني

فقالا نعم نشفي من الداءِ كلّه

وقامـــا مـــع العـــوّادِ يبتـــدران

فمـــا تركـــا رقيـــة يعلمانهـــا

ولا ســـلوةً إلا وقـــد ســـقياني

فما شـفيا الـداءَ الـذي بـي كلـه

ولا ادّخـرا نصـحاً ولا ألـواني

فقـــالا شـــفاك الله والله مالنـــا

بمـا حملـت منـك الضـلوع يـدان

غير أن (زرعة بن خالد العذري) يعرف أن دواءَه هو زيارة محبوبه له والنظر إليه، وليس لـه دواء إلا ذلك فيقول: (٦٠)

مـــريضٌ بأفنـــاءِ البيـــوتِ مطـــرّحُ

بـه مابـه مـن لاعـج الشـوق يُبـرَح

فقالوا لأجل اليـأس عودي لعلَّ مـا

تشـــكّاه مـــن آلام وجـــدِكِ يُمسَـــحُ

ولـــيس دواء الـــداءِ إلا بحيلـــةٍ

أضـــرّ بنـــا فيهـــا غـــرام مبـــرّحُ

وربما جعلوا التداوي من الحب، بحب آخر، أو التمـادي بـالهجر قهـراً لـنفس المحـب وروحـه، فيقول الشاعر: (٦١)

وقـــالوا دواء الحـــبِّ حـــبٌّ يزيلـــه

لآخر أو طـولُ التمـادي علـى الهجـر

وهيهـات أن تـزول حـرارة العاشـق، وإن

**** يقـــول ابـــن ســـينا إن الغـــم والهـــم والنســـيان تـــورث الغبـــاء، وهـو علـة نفسـية تقـود إلـى الفصـام أحيانـاً.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تناول مضادات حرارة عشقية وهي حبوب القُبَل، لأن هذه القُبَل هي التي تزيد حرارته، وليس يشفي (عروة) إلا عندما تمتزج روحُه بروحها، وفي ذلك يقول: (٦٢)

أعانقها والنفسُ بَعْدُ مشوقة

إليها وهل بعد العناق تدان

وألثمُ فاها كي تزولَ حرارتي

فيشتد ما ألقى من الهيمان

كأنَّ فؤادي ليس يشفي غليلُهُ

سوى أن تُرى الروحان تمتزجان

وقد حملت لنا المصادر دواءً للعاشق جديداً وهو الكَيِّ، وهذا آخر ماكان يستخدمه الأطباء في مداواة الأمراض المستعصية، وطريقة مداواة العاشق بالكَيِّ كالتالي: "كان يحمل العاشقَ رجلٌ على ظهرهِ كما يُحمَل الصبي، ويحمي الطبيب حديداً أو ميلاً، ويكويه بين إليتيه، فيسلو ويذهب عشقه، وفي ذلك يقول الشاعر العاشق: (٦٣)

شكوتُ إلى رفيقيَّ اشتياقي

فجاءاني وقد جمعا دواءا

وجاءا بالطبيب ليكوياني

ولا أبغي - عدمتهما اكتواءا

ولو أتيا بسلمى حين جاءا

لعاضاني من السقم الشِّفاءا

فإن اكتفى هذا العاشق بسلمى ليشفى، فإن الآخر يرى دواءَ الحب مستحيلاً إلا بلقاءِ العاشقين فيقول: (٦٤)

رأيتُ الحب ليس له دواءٌ

سوى وَضْع الصدور على الصدور

غير أني وجدتُ تنبيهاً في ديوان الصبابة يردّ على هذا الدواء ويحرّمه وهو: (٦٦)

"التداوي بالنكاح، لا يبيحه الشرع، بوجهٍ ما، إذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه، وأما التداوي بالضم والقبلة، فإن تحقّق الشفاء به، كان نظير التداوي بالخمور عند من يبيحه، بل هذا أسهل من ذاك فإن شربه من الكبائر، وهذا الفعل من الصغائر".

رابعاً: الأطباء الشعراء قديماً وحديثاً:

زخر تاريخنا الأدبي بأسماء كثير من الأطباء الذين كتبوا الشعر، فهناك علاقة جدلية وطيدة بين الطب والشعر، كما ذكرت في المقدمة وسأذكر في هذه العجالة بعضاً منهم مقتصراً على من كتب الشعر، وسأستعرض نموذجين منهم اشتهرا بالطب والشعر معاً.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ ـ الأطباء الشعراء قديماً: (٦٨)

(حُنين بن اسحق) وابنه (اسحق بن حنين) وهما طبيبان ومترجمان، ومؤرخان وشاعران، وأتقنا اليونانية والسريانية وابن أخت اسحق (جيش بن الحسن الأعشم الدمشقي) سار سيرتهما، و(الكندي)، و(أبو زيد البلخي)، و(أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو)، و(ابن زيله الحسين بن محمد)، و(أحمد بن الطيب السرخسي) و(عمر بن إبراهيم النيسابوري الخيامي) و(أمية بن عبد العزيز الأندلسي). و(أمين الدولة بن التلميذ)، و(ابن الشبل البغدادي)، و(أحمد بن عبد الغني النفيسي)، و(محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني)، و(ابن سينا).... وغيرهم....

وأغلب أشعارهم كانت في الفلسفة وقضايا الروح والنفس، وبعض الموضوعات التعليمية للطلبة. وأُثِرَ عن بعضهم قصائد في المديح للسلاطين والأمراء والخلفاء، ويكثر في قصائدهم النصائح الطبية، وخاصة الأراجيز(٦٩) وسآخذ مثالاً على هؤلاء الأطباء الشعراء وهو (فرج بن سلاّم)، ذكره (ابن عبد ربه) في العقد الفريد(٧٠) وأورد بعض أشعاره وكلها في النصائح الطبية، والمداواة، فهو يذكر الحُرْفَ والكمون فيقول:

فـي الحُـرْف سـبعون دواء

وفـي الكمّـون فيمـا قيـل سـتونا

مـذ قالـه هـرمس فـي كتبـه

فـلا تَـدَعْ حُرفـاً وكمّونـا

ويقول في فضل السعتر البرّي، والفَصْدِ والحِجامة:

بسـعترٍ بَـرٍّ داو كـلَّ مـبلغمِ

وذا المـرّة الصـفراءِ بالرازيـانق

وذو المـرة السـوداءِ ذاك علاجـه

تعاهدُ فَصْدِ العِرْق من كفِ حاذق

وذو الـدم فليكثـر لـذاك حجامـة

فمـا غيرهـا شـيءٌ لـه بموافـق

ويقول:

ماكـان في الرأس أخرجـه بغرغرةٍ

فالقيء يُخرج مافي الصدر من عفن

وكـل مـا كـان مـن صـلب فـذلك لا

يسـتلّ إلا بـأخلاطٍ مـن الحقـن

وينصح أيضاً بعدم تغطية الرأس حين الخروج من الحمّام فيقول:

ولا تغـطّ الـرأس فـي وقـت مـا

تخرج من الحمّام واخشَ الضررْ

**** يعتبر كبار الصوفية أن أيسر الحب هو الذي يحل بالمجانين لأن نفوسهم قد غدت معلقة بمن يحبون.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن بخـار الـرأس فـي وقـت مـا

وصـــفته داءٌ يصـــيب البصـــرْ

وتمتـد نصـائحه الطبيـة لتشـمل الشـراب والطعام فينصح بعدم شرب الماء بعد النوم، إذ يقول:

لا تشرب الماء بعد النوم من ظمأ

ولا تبت أبداً من غير منتفض

فجوف من بات من ماءٍ ومن ثقلٍ

ومن رياح دعا كلاً إلى مرض

وهو يدعو إلى الإكثار من الزيت على السمك عند طبخهِ فيقول:

السـمك المـالح إن لـم يكـن

بـدٌ مـن الأكـل لـه فـانعم

بـالطبخ أكثـر زيتـه ثـم كـل

من قبل مأدوماً من المطعم

ويدعو إلى السواكِ من أجل سلامة الأسنان فيقول:

إن السـواك ليسـتحب لسـنّةٍ

ولأنـه ممـا يطيـب بـه الفـمُ

لم تخش من حفر إذا أدمنته

وبـه يسـل مـن اللهـاةِ الـبلغمُ

وكل أشعاره تنحو هذا المنحى، وهذا الأمر لا نراه عند الأطباء الشعراء المحدثين بل سنرى انعكاس هذه المهنة واضحاً جلياً عند بعضهم.

ب ـ الأطباء الشعراء المحدثون:

لمعت أسماء شعراء أطباء في العصر الحديث ومنهم من نشر أعمالاً إبداعية في مجال الشعر مثل الدكتور عبد السلام العجيلي، والدكتور إبراهيم ناجي أحد أعلام الرومانسية العربية، والدكتور فيصل الزرّاد، الذي اشتهر بالطب النفسي والفلسفة والشعر، والدكتور أحمد كامل قدح، والدكتور شاكر مطلق، والدكتور نور الدين خضور، والدكتور وجيه البارودي، والدكتور صدر الدين الماغوط.

وبعضهم تعامل مع الشعر ويمتاز بموهبة أصيلة غير أنه لم ينشر أعمالاً إبداعية بعد، مثل الدكتور غيث رجّو، والدكتور سليمان الأحمد.

وقد كتب هؤلاء الأطباء في فنون الشعر كافة، غير أن انعكاس مهنة الطب لم يتضح في أشعارهم، بل غلبت الشفافية الشعرية على أعمالهم، مما يدل على خلفية ثقافية وموهبة شعرية متميزة لديهم، وسأتوقف عند شاعرٍ منهم، بدت مهنته في أغلب قصائدهِ، وتحدث بالتفصيل عن مهنة الطب، وأستطيع أن أقول لقد تفرّد بهذا المنحى بين الأطباء والشعراء قديماً وحديثاً، وهو الطبيب الشاعر وجيه البارودي الذي قاوم التدجيل

**** وقـالوا جنـت علـى ليلـى فقلـت لهم الحـب أيسره ما للمجانين.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في حماة مدينته منتصراً للطب إذ يقول: (٧١)

وإن قلت: هذا الداء لا حيلة

للطب فيه قيل هذا غباءْ

وأقبل الدّجال فاستبشروا

بسحرهِ والسحر بعض الدواءْ

فاطرب لتدجيل يدرّ الثراء

وارثِ لشعبٍ يستحق الرثاءْ

وهو إن وصل إلى عيادته يراها مكتظة كخلية النحل بالمرضى، فيصوّرهم بدقة متناهية وواقعية جميلة، وقد ينال منهم لخشونة بعضهم وطباعهم القاسية:

بابي خليةُ نحلٍ كلّه إبرُ

والنحل يمنحنا شهداً مع الإبر

أقضي نهاري وليلي في مصارعةٍ

مع التيوس وأحياناً مع البقر

وفي ضجيج وفوضى في مزاحمةٍ

فالسَّبْق فيها نصيب الليث والنمر

هذا يئن وهذا يستغيث وذا

يُرغي ويزبد في حمّى من الضجر

فكم وددتُ لوأنّا في تطورنا

نرقى إلى مستوى القرابطِ والنَّوَر

وربّما طمحت نفسه إلى بعض الراحة، من هذا العناء الذي سببته مهنته:

بحاجة قلبي إلى راحةٍ

يسكن فيها بعد طول العناءِ

ما أنا دولابٌ على آلةٍ

إن دار صبحاً لم يقف في المساءِ

كلا ولا عيسى أنا مخطئٌ

مَنْ عدّني في زمرة الأنبياءِ

ورغم ذلك يعتز بمهنتيه الطبية والشعرية، فالبرء دائماً عنده، فيقول:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والبرءُ عندي كم شفيت معذباً

برحيـق أشـعاري ومُـرِّ دوائـي

وقد لا يأتيه التعب من مهنته، بل من زوجه التي تغار من مهنته، لأنها تشاهد الفتيات والنساء المرضى يأتين إلى عيادته، ويجس أجسادهن، فيظهر غيرتها بقوله:

حبيبـي فـي الأسـاةِ يجـسّ نبضـاً

وتفحـــص كفُّـــه بطنـــاً وظهـــرا

ويصـــغي للفـــؤادِ فلـــيس يخفـــى

عليـــه مـــا أجِـــنّ ومـــا أسِـــرّا

ولكنـــــي أعاتبـــــه فيمضـــــي

ويـــزعم أن فـــي أذنيـــه وقـــرا

حـــديثُ القلـــبِ يســـمعه وعتبـــي

إذا عَرْبَـــدْتُ لـــيس يعيـــه جهـــرا

وقد تفرّد الدكتور البارودي بالحديث عن نفسه وخاصة في شيخوخته حيث تفتر عاطفة الحب لديه وتنطفئ جذوة الشباب فيه فيجد في طبه ملاذه الوحيد لينقذه من شيخوخته فيقول:

أنـا مـا تركـت مـن التوابـل تـابلاً

في الهندِ يُعرف أو حشائشَ مغربِ

ورجعت للطبِ الحديث أغوص في

أبحـــاث كـــل منقـــبٍ ومعقـــبِ

حتـى انتهيـت إلـى خفايـا غـدّةٍ

فـي غورهـا سـر الشـبيبةِ يختبـي

فجعلـت مـن إكسـيرها راحـاً ومـن

مشـــوِّيها ألـــوانَ نُقـــلٍ طيّـــبِ

فبجرعـــةٍ عـــاد الشـــباب لأوجـــهِ

وبجرعتين يعود لـي مرحُ الصبي:

ولا ينسى البارودي أن يحدثنا عن ثروته التي جناها من مهنته، رغم أنه قد مرَّ معنا عن قناعته وكفافه شيء، فهو يقول واصفاً خزانة ماله:

لـديَّ خزانـــةٌ وشـريت أخـرى

مخافـــة أن تغـــصَّ بـــوارداتي

لقـد أضـحى وجـيهكم وجيهـاً

وصـــار مـــن الجهابـــذةِ الثقـــاتِ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأوراقـي الصـغار غـدت كبـاراً

فأصـغرهن مـن فنـة المئـاتِ

وبيتـي طابقـان وكـان كوخـاً

سيصـبح مـن طـراز الناطحـاتِ

غير أنّه يقرّ بأكثر من قصيدة أن سعادته في شفاء الناس وليس في الثراء، وربّما ظهر أثر شخصيته المرحة في بعض أشعاره كما هو معروف عنه، فقد كان يؤمن بالطب علماً ومنهجاً، ويتمثّل إيمانه به وثقته أن الطب الحديث هو الذي سينتصر لصالح رفاهية الإنسان وخدمة الإنسانية فيقول في قصيدته"تأملات في الحياة":

وسـيقفز الطـبُّ الحـديثُ ويرتقـي

لـلأوج فـي بحـثِ العلـوم خبيـرُ

فيصولُ في الأمراض صولة فارسٍ

ويجـولُ فـي ميـدانها ويُغيـرُ

فيطـول عمـر المـرء حتـى إنـه

يربـو علـى المئتـين وهـو صـغيرُ

وسيرجع الشيخ المسنّ إلى الصبا

فيثـور كالفتيـان حـين يثـور

رغباتـهُ محمومـة لا تابـلٌ

للعـزم يعـوزه ولا إكسـيرُ

وسيبقى الطب إكسير الحياة، والشعر إكسير الروح، يتعانقان في جوانح الإنسان.

❑

▪ إحالات البحث:

(١)ـ تهـذيب إصـلاح المنطـق /٤٩/ ومـتن اللغـة: /ط.ب.ب/.
(٢)ـ نفسه.
(٣)ـ متن اللغة /ط.ب.ب/.
(٤)ـ متن اللغة /ن.ط.س/.
(٥)ـ متن اللغة /ح.ك.م/.
(٦)ـ تاريخ الحكماء/٣١٤/.
(٧)ـ في التاريخ العباسي والأندلسي /٥٦٧/.
(٨)ـ نفسه/ ٤٥٦/.
(٩)ـ حياة الحيوان الكبرى/١٦٦/.
(١٠)ـ الشوقيات ٢١٨/١.
(١١)ـ كذا أنا /٥٥/.
(١٢)ـ نفسه /١١٥/.
(١٣)ـ نفسه /١١١/.
(١٤)ـ نفسه /٥١/.
(١٥)ـ المستطرف من كل فن مستظرف ٣٤٧/٢.
(١٦)ـ قاموس الأطبا ١٥٠/٢/.
(١٧)ـ نفسه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١٨)ـ حياة الحيوان الكبرى ١٠٦/٢.
(١٩)ـ المستطرف ٣٤٧/٢.
(٢٠)ـ نفسه ٣٤٩/٢/.
(٢١)ــ ديـوان المتنبـي ٤٧٨/٢/. والجَمـام: الشّـبع والري.
(٢٢)ـ قاموس الأطبا ٦٢/٢.
(٢٣)ـ المستطرف ٣٤٨/٢.
(٢٤)ـ نفسه.
(٢٥)ـ ديوان بشار ١٦٥/٣.
(٢٦)ـ ديوان بدر شاكر السياب /٤٢/.
(٢٧)ـ شعر الأخطل الصغير /٢٥٨/.
(٢٨)ـ المستطرف ٣٥٤/٢.
(٢٩)ـ حياة الحيوان الكبرى ١٧٠/٢/.
(٣٠)ـ نفسه.
(٣١)ـ قاموس الأطبا /١١٧/.
(٣٢)ـ نفسه.
(٣٣)ـ الأعمال الكاملة /٥٠١/.
(٣٤)ـ ديوان الشبلي/٢١/.
(٣٥)ـ تزيين الأسواق في أخبار العشاق /٣٥/.
(٣٦)ـ نفسه /١١٨/.
(٣٧)ـ نفسه /١٢٣/.
(٣٨)ـ ديوان الصبابة /٢١٤/.
(٣٩)ـ نفسه.
(٤٠)ـ نفسه.
(٤١)ـ نفسه.
(٤٢)ـ المستطرف ٣٥٤/٢.
(٤٣)ـ نفسه.
(٤٤)ـ نفسه.
(٤٥)ـ صحيح مسلم، آداب الطعام.
(٤٦)ـ المستطرف ٣٥٣/٢.
(٤٧)ـ نفسه ٣٥١/٢.
(٤٨)ـ نفسه.
(٤٩)ـ قاموس الأطبا ٢٨/٢.
(٥٠)ـ نفسه ٢٨٢/٢.
(٥١)ـ نفسه ٣٥٠/٢.
(٥٢)ـ قاموس الأطبا ٢٠٤/٢.
(٥٣)ـ حياة الحيوان الكبرى ٥٢/١.
(٥٤)ـ نفسه ٥٥/١.
(٥٥)ـ تزيين الأسواق /٣٤٦/.
(٥٦)ـ ديوان جورج صيدح /١٤٧/.
(٥٧)ـ ديوان السياب /٦٧٧/.
(٥٨)ـ تزيين الأسواق /٣٧٤/.
(٥٩)ـ نفسه/١٣٥/.
(٦٠)ـ بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ٣٢٢/٢.
(٦١)ـ ديوان الصبابة /١٨٠/.
(٦٢)ـ نفسه/١٧٦/.
(٦٣)ـ بلوغ الإرب /٣٢٢/٢/.
(٦٤)ـ ديوان الصبابة /١٧٦/.
(٦٥)ـ نفسه.
(٦٦)ـ نفسه/١٨٠/.
(٦٧)ـ نفسه/١٨١/.
(٦٨)ـ تاريخ الحكماء /٤٠٧/ وما بعدها.
(٦٩)ــ أنظر أرجوزة ابن سينا في حياة الحيوان /٥٧/.
(٧٠)ـ العقد الفريد ٢٧٨/٦/.
(٧١)ـ كل الأشعار من ديوان كذا أنا، حسب الترتيب التـــــالي: (١٦٢ـ١٩١ـ١٢٩ـ٤٣ـ٧٧ـ١٢٠ـ٢٠٤).

****

▪ مصادر البحث:

١ ـ الأعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت ١٩٧٥م.
٢ ـ بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي ، تحقيق محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
٣ ـ تاريخ الحكماء، السهرزوري، تحقيق: عبد الكريم أبو شويرب، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ١٩٨٨م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤ ـ تاريخ حكماء الإسلام، البيهقي، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقي، ١٩٤٦م.
٥ ـ تـزيين الأسـواق فـي أخبـار العشـاق، داوود الإنطاكي، دار محيو، بيروت، ١٩٧٢م.
٦ ـ تهذيب إصلاح المنطق، الخطيب التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣م.
٧ ـ حياة الحيوان الكبرى، الدميري، دار الألباب، بيروت، بلا تاريخ.
٨ ـ ديوان أبي بكر الشبلي، تحقيق: كامل مصطفى الشيبي، دار التضامن، بغداد، ١٩٦٧م.
٩ ـ ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت ١٩٧٥م.
١٠ـ ديوان الصبابة، ابن حجلة الحموي المغربي، دار حمد ومحيو، ١٩٧٢م.
١١ـ ديوان المتنبي، دار الأرقم، بيروت ١٩٧٦م.
١٢ـ الشوقيات، أحمد شوقي، دار الفكر، دمشق، بلا تاريخ.
١٣ـ العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين، ورفيقيه، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣م.
١٤ ـ في التاريخ العباسي و الأندلسي، د.سهيل زكار، دار الكتاب، دمشق ١٩٩٢م.
١٥ ـ قاموس الأطباء، وناموس الألباء، مدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري. دار الفكر دمشق ١٩٨٠م.
١٦ـ كذا أنا، وجيه البارودي، مطبعة الدباغ، حماة، ١٩٦٥م.
١٧ـ متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة الجديدة، بيروت ١٩٥٩م.
١٨ـ المستطرف من كل فن مستظرف، الأبشيهي، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.

❑❑❑

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com